

من القدس إلى الأندلس: كيف قادت صفقات السلطة والتطبيع مع الأعداء إلى سقوط دول ومدن في التاريخ الإسلامي؟



الخميس 2 يوليو 2026 03:40 م

لا يقتصر تاريخ الأمم على صفحات الانتصارات والبطولات، بل يحتفظ كذلك بمحطات قاسية كشفت كيف يمكن للصراعات الداخلية والطموحات الشخصية أن تفتح الأبواب أمام القوى الخارجية، وأن تتحول الخلافات على السلطة إلى سبب مباشر في سقوط مدن ودول كاملة

وفي التاريخ الإسلامي، برزت عبر عصور مختلفة نماذج لحكام وأمراء اختاروا التحالف والتطبيع مع خصوم أو غزاة أجنبياً بدلاً من الاحتفاظ بالسلطة أو انتزاعها من منافسيهم، مقابل تقديم تنازلات سياسية أو عسكرية أو إقليمية، وهو ما انتهى في كثير من الأحيان بخسارة الجميع، وضياع المدن، وانهيار الدول، فيما بقيت أسماء أصحاب تلك التحالفات مرتبطة بصفتها مثيرة للجدل في كتب التاريخ

وتكشف الروايات التاريخية أن هذه الوقائع لم تكن مرتبطة بمرحلة زمنية واحدة، بل تكررت من عصر الحروب الصليبية إلى الغزو المغولي، مروراً بسقوط الأندلس وأحداث المغرب الإسلامي، لتشكل نمطاً متكرراً عنوانه الأبرز: تقديم المصالح الشخصية على حساب المصالح العامة

صفقات السلطة في مواجهة المصلحة العامة

يرى عدد من المؤرخين أن أخطر أشكال التحالفات السياسية في التاريخ كانت تلك التي قامت على مقايضة الأرض أو السيادة أو الأمن الداخلي مقابل استمرار الحاكم في السلطة

ففي مثل هذه الحالات، يتحول الخصم الخارجي إلى شريك سياسي، بينما يصبح الشعب وأرض الدولة مجرد أوراق تفاوض، وهو ما يفسر تكرار ظاهرة الاستعانة بالقوى الأجنبية خلال لحظات الضعف والانقسام الداخلي

كما تشير الوقائع إلى أن هذه التحالفات كانت غالباً نتيجة غياب الثقة بين الحكام وشعوبهم أو بين القوى السياسية المتنافسة، الأمر الذي دفع بعض الحكام إلى البحث عن ضمانات خارجية تضمن بقاءهم، حتى لو جاء ذلك على حساب استقلال الدولة

خيانة مبكرة خلال الحروب الصليبية

شهدت بدايات الحروب الصليبية نماذج مبكرة لهذا النوع من التحالفات

فقد سقطت مدينة بيميساط بعد أن عرض حاكمها تسليمها للقوات الصليبية مقابل مبلغ مالي كبير، لتنتقل المدينة دون مقاومة تذكر إلى أيدي الغزاة

ولم تكن أنطاكية أفضل حالاً، إذ استمرت تحت الحصار عدة أشهر قبل أن يتمكن أحد المسؤولين عن أحد أبراجها من فتح الطريق أمام القوات الصليبية بعد اتفاق سري، لتسقط واحدة من أهم مدن الشام نتيجة خيانة داخلية أكثر منها نتيجة تفوق عسكري

ويرى مؤرخون أن سقوط أنطاكية أصبح مثلاً تاريخياً على أن الحصون قد تصمد أمام الجيوش، لكنها تنهار عندما يأتي الخطر من الداخل

مصر كادت تضيق بسبب الصراع على الوزارة

امتدت آثار الصراعات الداخلية إلى مصر الفاطمية، حيث أدى التنافس بين الوزراء والقادة العسكريين إلى فتح الباب أمام التدخل الصليبي. فبعد إقصائه عن منصبه، لجأ الوزير شاور إلى طلب الدعم الخارجي لاستعادة نفوذه، ثم دخل لاحقًا في تحالف مع الصليبيين، وهو ما منحهم فرصة غير مسبوقه للتدخل في الشأن المصري. وتذكر المصادر التاريخية أن هذا التحالف كان من الأسباب التي دفعت السلطان نور الدين محمود إلى إرسال حملاته العسكرية بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي لإنهاء الوجود الصليبي داخل مصر، وهي الخطوة التي مهدت لاحقًا لقيام الدولة الأيوبية.

القدس: المدينة التي سُلمت مرتين

تُعد قضية القدس من أكثر الوقائع إثارة في التاريخ الإسلامي.

فبعد أن نجح صلاح الدين الأيوبي في استعادتها عقب معركة حطين عام 1187، لم تمض عقود قليلة حتى قرر السلطان الكامل الأيوبي تسليم المدينة للإمبراطور الألماني فريدريك الثاني ضمن اتفاق سياسي، في خطوة أثارت موجة غضب واسعة بين العلماء والعامّة. وتصف المصادر التاريخية ردود الفعل آنذاك بأنها بلغت حد إقامة المآتم في عدد من المدن الإسلامية، معتبرة أن ما جرى شكّل صدمة كبرى للرأي العام. ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة، إذ عادت القدس مرة أخرى إلى أيدي الصليبيين بعد سنوات قليلة نتيجة تحالفات داخلية بين بعض أمراء البيت الأيوبي، قبل أن يستعيدها المسلمون لاحقًا بعد معارك جديدة. وتبرز هذه الأحداث كيف تحولت الخلافات العائلية والصراعات على النفوذ إلى عامل مباشر في تغيير مصير واحدة من أقدس مدن العالم الإسلامي.

بغداد ودمشق بين الخيانة والغزو المغولي

عندما بدأ المغول زحفهم نحو العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري، لم يكن السلاح وحده سببًا في سقوط المدن الكبرى. فقد ارتبط سقوط بغداد في عدد من المصادر التاريخية بدور الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي، الذي اتهم بإقامة اتصالات مع المغول وتسهيل تقدمهم نحو العاصمة العباسية، في واحدة من أكثر الروايات إثارة للجدل في التاريخ الإسلامي. وبعد سقوط بغداد، تكررت مشاهد الانهيار في دمشق، حيث ساهمت حالة الانقسام والارتباك داخل البلاط الأيوبي، إلى جانب الدعوات إلى الاستسلام، في تسهيل دخول القوات المغولية إلى المدينة. وتؤكد المصادر أن كثيرًا ممن راهنوا على كسب رضا المغول انتهوا إلى المصير نفسه، إذ لم يحظوا بثقة حلفائهم الجدد، وتعرض عدد منهم للقتل أو الإقصاء بعد انتهاء دورهم.

الأندلس: صراع الأمراء الذي فتح الطريق للغزاة

يحتل تاريخ الأندلس مساحة واسعة في سرد وقائع التحالف مع القوى الأجنبية. فمنذ أواخر العصر الأموي، لجأ بعض الأمراء إلى الاستعانة بملوك الفرنجة ضد أبناء عمومتهم ومنافسيهم، وهو ما منح القوى المسيحية فرصة للتدخل المتزايد في شؤون الأندلس. ومع عصر ملوك الطوائف، أصبحت هذه السياسة أكثر وضوحًا، إذ دخل عدد من الحكام في علاقات تبعية مع ملوك قشتالة وليون، ودفعوا الجزية لهم، بل تنازل بعضهم عن حصون ومدن كاملة مقابل الحصول على دعم عسكري ضد خصومهم. ويرى مؤرخون أن هذه السياسات أضعفت الجبهة الإسلامية بصورة كبيرة، ومهدت الطريق لسقوط مدن استراتيجية مثل طليطلة، التي مثل فقدانها نقطة تحول كبرى في تاريخ الأندلس.

أمراء اعتنقوا دين الحلفاء

ومن أكثر الوقائع إثارة للانتباه ما شهدته السنوات الأخيرة من حكم الموحدين في الأندلس، عندما لجأ بعض الأمراء إلى التحالف الكامل مع الممالك المسيحية. وتذكر مصادر تاريخية أن بعضهم لم يكتف بتسليم الحصون أو المشاركة في حملات عسكرية ضد المسلمين، بل وصل الأمر إلى اعتناق المسيحية، في محاولة لكسب ثقة الحلفاء الجدد وضمان استمرار نفوذهم.

لكن هذه التحالفات لم تمنع انهيار سلطاتهم، بل أسهمت في تسريع فقدان الأراضي الإسلامية واحدة تلو الأخرى.

غرناطة النهاية الأخيرة

بلغت الأزمة ذروتها في السنوات الأخيرة من مملكة غرناطة، آخر معاقل المسلمين في الأندلس

فقد دخل أبو عبد الله الصغير وعمه الزغل في صراع على الحكم، وسعى كل منهما إلى الاستعانة بملكي قشتالة وأرغون ضد الآخر

واستغل الإسبان هذا الانقسام أفضل استغلال، فاستولوا تدريجيًا على المدن والحصون، قبل أن يحاصروا غرناطة نفسها

وبعد سقوط المدينة عام 1492، انتهى الوجود السياسي الإسلامي في الأندلس بعد نحو ثمانية قرون، في مشهد اعتبره كثير من المؤرخين نتيجة مباشرة لتراكم الانقسامات الداخلية والتحالفات الخارجية أكثر من كونه نتيجة للهزيمة العسكرية وحدها

المغرب تحالف انتهى بكارثة

لم تكن بلاد المغرب بعيدة عن هذه الظاهرة

ففي القرن السادس عشر، استعان السلطان السعدي المخلوع محمد المتوكل بالقوات البرتغالية لاستعادة عرشه، مقابل وعود بالتنازل عن عدد من المدن الساحلية

وأثار هذا الاتفاق غضب العلماء الذين وجهوا إليه رسائل شديدة اللهجة، معتبرين أن ما جرى يمثل تنازلًا عن أراضٍ إسلامية لصالح قوة أجنبية

وانتهت تلك المغامرة بمعركة وادي المخازن الشهيرة، التي قُتل فيها المتوكل والملك البرتغالي سباستيان والسلطان عبد الملك السعدي، لتدخل المعركة التاريخ باسم "معركة الملوك الثلاثة".

درس التاريخ

تكشف هذه الوقائع، رغم اختلاف الأزمنة والسياقات، أن الانقسامات الداخلية كانت في كثير من الأحيان بوابة للتدخلات الخارجية، وأن الصراعات على السلطة كثيرًا ما منحت القوى الأجنبية فرصًا لم تكن لتحصل عليها بالقوة العسكرية وحدها

كما تظهر الروايات التاريخية أن كثيرًا من الحكام الذين راهنوا على دعم القوى الخارجية انتهوا بخسارة السلطة التي سعوا إلى الحفاظ عليها، بينما دفعت شعوبهم ثمن تلك التحالفات عبر فقدان المدن والأراضي، أو انهيار دول بأكملها

ولهذا يرى باحثون أن دراسة هذه المحطات لا تقتصر على استعادة أحداث الماضي، بل تمثل قراءة في كيفية تأثير الانقسام الداخلي على مصير الدول، وكيف يمكن للطموحات الشخصية أن تتحول إلى نقطة تحول كبرى في مسار التاريخ